معالي
د.محمد قريش
شهاب

عضو مجلس حكماء المسلمين، ووزيـــر الشؤون الدينيـة الإندونيسي الأسبق؛ حصل على الدكتوراه عام 1982 في تخصص التفسير؛ وقد ألف العديد من الكتب العلمية في موضوعات إسلامية مختلفة. منحته الدولة الإندونيسية عام 2005 قلادة الجمهورية لمجمل خدماته وقد اختاره المركز الإسلامي الملكي للدراسات الاستراتيجية في الأردن من بين 500 شخصية كأحد الشخصيات الإسلامية المؤثرة في العالم.

معالي د. محمد قريش شهاب

السادة الحضور.. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لعلي لا أجانب كبد الصواب إذا بدأت حديثي عن الأخوة الإنسانية بالمقولة الحكيمة والمشهورة لا سيما لدى المثقفين المسلمين و هي: " الناس صنفان إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الإنسانية ". هذه المقولة ليست وليدة اليوم ولا هي حاضرة منذ عهد قريب؛ أي في عصر العولمة حيث تقاربت المسافات وشعر الناس بضرورة احترام حقوق الإنسان وبحتمية التعاون بين الجميع... ولكنها عرفت منذ عهد بعيد، فقد نسبت إلى الإمام علي بن أبي طالب كرم االله وجهه في رسالته التي وجهها لوالي مصر الأشتر النخعي أيام خلافته عليه السلام في القرن السابع الميلادي (656 – 661 م)

لقد صورت تلك المقولة المختصرة النزعة الإنسانية الخلاقة التي ينبض فيها روح التواصل الإنساني على مستوى الناس كافة دون تفرقة؛ فالناس جميعا سواسية كأسنان المشط، وأنهم جميعا من عنصر واحد لا مزية لأحد في الإنسانية على الآخر؛ بل ينبغي أن يقال: إنه من حيث الإنسانية لا "آخر" هنالك؛ فالكل من آدم، آدم من تراب. والدين يعلمنا أن نحب لإخواننا ما نحب لأنفسنا.

هذا و نسطيع أن نؤكد أن تلك المقولة مستمدة من وحي كتاب الإسلام المقدس – القرآن الكريم- كما يؤيدها رسول الإسلام محمد ﷺ بسننه أقواله وأفعاله وتقريرا، وقد ورد

في القرآن – غير مرة - كلمة الأخوة تارة مقرونة بكلمة "الدين" وتارة أخرى خالية منها؛ بل إن الرسل المبعوثين إلى أممهم يسميهم القرآن "أخ" على الرغم من أن تلك الأمم تنكر رسالات أنبيائهم و تعاديهم، يقول تعالى:﴿وإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا...﴾[هود:61]﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا...﴾ [هود:65] ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا...﴾ [هود:84].

السادة الحضور؛

إن المقولة المنسوبة إلى الإمام علي- رضي الله عنه- تفيد أن هنالك رابطان لا ثالث لهما، وأن رابط الاشتراك في الدين – الأخوة الدينية، لا يُلغي، كما يظن البعض - رابط الاشتراك في الإنسانية و إنما ذكرتا جنبا إلى جنب لكي تفتح وعي الإنسان على الرابط الإنساني، ولتؤكد أهميتهما في بناء عالم يسوده الوئام والسلام على الرغم من تعدد الأجناس والأديان، وأنه كما يقول ربنا: ﴿... وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ... ﴾ [الحجرات: 11]. ومن التعارف يحصل الاعتراف والتعاون؛ بل من التعارف يحصل الاحترام المتبادل علما بأن الاحترام لا يعني بالضرورة قبول رأي الآخر فضلا عن الرضى به أو المودة والولاء له؛ وإنما هو قبول الآخر بما هو عليه من اعتقاد ورأي؛ قبوله للتعايش معه تعايشا سلميا من أجل مصلحة الجميع..

أيها السادة

إن أكبر تحد لتحقيق الأخوة الإنسانية يكمن في حضارة العصر التي تولي اهتماما فوق اللازم للمادة والآلة مصحوبا بالطمع والأنانية، واضعة على الهامش الإنسان وإنسانيته. نعم؛ من المنصف أن نعترف بأنه: "لا ريب أن البشرية قد تقدمت في شتى فروع العلم والتقنية ولكن في الوقت نفسه قد أضرت بالإنسانية".

إن البشرية اليوم تشبه الفراشة؛ ترقص وتستمتع حول النور أو النار ثم ما لبث أن تحترق، إن اهتمام معظم المختصين وعلماء بناء هذا العصر للعالم الخارجي وما يتعلق بالمادة، يفوق بكثير اهتمامهم بالإنسان؛

(نفسيته وروحه وقيمه..) التي بها قوام إنسانيته؛ وبالتالي صارت معرفته لنفسه -المكون من جسد وروح- أقل من القليل عن معرفته بالعالم الخارجي، بل كما يقول الطبيب الفيلسوف ألكسس كاريل في كتابه "الإنسان؛ ذلك المجهول Man The Unknowen" كم من أسئلة عن الإنسان يتساءل عنها الأخصائيون لم يجدوا لها جوابا حتى الآن؟ ثم أكد الدكتور "كريل بان" قصور فهم الإنسان لنفسه لا يرجع فحسب بسبب تأخر الإنسان في القيام بالبحث عن حقيقة نفسه نظرا لانشغاله فترة من الزمان في التفكير لمواجهة تهديدات الطبيعة لكن ضآلة المعرفة ناتجة أيضا عن تعقد موضوع البحث –أعني هذا الكائن الفذ – بينما الإنسان غالبا لا يحبذ التفكير في الموضوعات الصعبة... ثم يستطرد الدكتور "كاريل" أن الأهم من هذا السبب وذاك هو طبيعة العقل الإنساني العاجز عن معرفة كل شيء، وأقول: إن ما ذكره من السبب الأهم يشير إلى ضرورة رجوعنا إلى خالق البشر؛ لنستمد منه العلم والمعرفة عن الإنسان، وهذا لا يتسنى إلا إذا ما تصفحنا الكتب المقدسة والعلم اليقيني وفهمها فهما صحيحا يتماشى مع روح العصر.

ومن هنا أنتقل إلى التحدي الثاني عن صدد موضوعنا إنه لَمَا يؤسف عليه أن بعضا من أبناء هذا العصر - نتيجة لعدة عوامل وظروف أو الجهل وسوء الفهم لتعاليم الدين أوعدم إلمام بالمتغيرات الحاصلة- يعتبرون أن الأخوة الدينية لا تتماشى مع الأخوة الإنسانية.

إن ما ذكرناه من مواقف بعض أبناء هذا العصر قد أدى -ويؤدي- إلى الانغلاق، بل القطيعة، على الرغم من أن الواقع يفرض نفسه – شئنا أم أبينا– أن يكون التواصل ومحاولة فهم الآخر من ضروريات الحياة قديما؛ فما بالك حديثا بعد أن انهدمت الحواجز وانهارت السدود، ولم تعد تنفع الفواصل حتى ولو حاولنا إقامتها من جديد، فاليوم –حياتنا- في ظل العولمة التي فرضت نفسها لم تعد تنفع الحيلولة دون وصول ما نسميه "الآخر" إلينا وصولا مؤثراً فينا.

ومن الانغلاق والقطيعة غابت فكرة الأخوة الإنسانية في مناطق غير قليلة من محيطنا. ومن بين دلالة غيابها ما تفيده الإحصائيات التي تقول: بأن كل دقيقة يضطر أربع وعشرون نفرا إلى ترك أوطانهم هربا من الاضطهاد أو رغبة في السلام، و حوالي أربع و ثلاثين ألف نفر

يغادرون أوطانهم كل يوم تاركين كل ما يملكون رغبة في المعاملة الإنسانية التي فقدوها، حتى بلغ عدد اللاجئين في عالمنا اليوم أكثر من 60 مليون نسمة حسب إحصائية الأمم المتحدة، والغريب أن نصف هذا العدد تحتضنهم دول نامية أو متوسطة الدخل مع أن حصيلة تلك الدول جميعا لم تبلغ إلا حوالي اثنين ونصف في المائة من الناتج الإجمالي العالمي، فأين الدول الغنية ؟ هذا عن مشكلة اللاجئين وكم من مشاكل غيرها تستغيث باسم الأخوة الإنسانية وتنادي بالحل أو التخفيف عن معاناة بني الإنسان.

أيها السادة؛

إن الإنسانية -كما تعلمون- ليست هي الإنسان، وأُخُوَّتُها ليست مجرد علاقة أيما علاقة، وإنما هي مفهوم إنساني اجتماعي وعلاقة مبنية على قيم من العدل والإحسان والرحمة والسلام بل الإيثار والتضحية..

إن المتصف بالإنسانية: (عقلاً و شعوراً وعاطفةً و نمطاً من السلوك)؛ هو عقل يتميز بالتفكير السليم، وشعور مرهف يحس بآلام الآخرين، وعاطفة تحث على الخير والجمال، ثم سلوك يتميز بالتعاون مع الجميع لمصلحة الخليقة جمعاء؛ وتلك قيم - أيها السادة- تكاد تختفي من مجتمعنا.

إننا اليوم لأحرى من ذلك الفيلسوف اليوناني الذي يحكى أنه ظل يمشي في الطرقات حاملا المصباح باحثا عن إنسان متصف بالإنسانية؛ هذا و لقد استحى بعض المنصفين من بني آدم أن ينتميَ إلى جنس الإنسان بعد ما رأوا بعض الحيوانات -على خلاف الإنسان - تساند غيرها، وإن لم تكن من أبناء جنسها.

أيها السادة؛ هذه بعض مشكلاتنا وقسم من تحديات عصرنا، وعلى رأس من توجه إليه الآمال للتخفيف عنها هم القائمون بأمور الدين والمهتمون بمسائل الأخلاق والإنسانية.

إن ظروف عالمنا اليوم غير ظروفه بالأمس؛ حيث يجب مواكبته بأفكار غير أفكار الأمس،

بشرط ألا تكون متعارضة بأصول الدين وقيم الأخلاق؛ فكم من أفكار سابقة قد تكون مناسبة في عصرها ولكن لم تكن صالحة في عصرنا.. ثم كم من الأفكار المطبقة سابقا لا تزال -على الأقل- رواسبها متأصلة في نفوس البعض، على الرغم من صراخ الإنسانية بنبذها؛ فالعنصرية أو فكرة تفوق جنس على جنس لا يزال حاضرا –علنا أو همسا– حتى في البلاد التي تسمى متحضرة؛ والرق على الرغم من إعلان حقوق الإنسان لا يزال متواجدا وإن لم يكن مثل صوره السابقة.

أيها السادة؛

إن تمسك البعض بتلك الأفكار البالية وغيرها، حتى وإن لم تفصح بها - بأن تكون متواجدة تحت شعورهم- قد ساهمت أيما مساهمة في بقاء، بل إيجاد مشكلات اجتماعية تؤدي إلى فقدان الأخوة الإنسانية.. و مما يزيد الطين بلة أن بعض القائمين بأمور الدين أو المتمسكين بالعادات والتقاليد البالية يساهمون في بقاء أو تفاقم المشكلات بخطبهم وإرشاداتهم ومواقفهم؛ فمنهم من يزعم أن الإحسان لغير المسلمين أو إلقاء السلام و التهنئة في أعيادهم ومناسباتهم الوطنية أو الدينية أمور منهية إسلاميا.. أقول: كيف يصح هذا الزعم والقرآن المتلو يقول: ﴿ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة:8]، و على الرغم من قوله "تبروهم" يشمل تقديم العطايا المادية لهم إلا أن قوله تعالى "تقسطوا إليهم" يؤكد أحد أصناف البر؛ فإنه كما يقول ابن العربي في تفسيره أحكام القرآن إنه بمعنى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: 8].

هذا من جانب بعض المسلمين وعلى الجانب الآخر توجد شخصيات بارزة جدا من غير المسلمين من تتحدث في منابر علمية بأفكار يقال: بأنها إسلامية و ماهي بإسلامية في شيء؛ بل هي مستمدة من مصادر غير إسلامية تحتوي على أغاليط و أكاذيب.. ثم أخيرا وليس آخرا؛ كم نسمع علنا من شخصيات حكومية ذات مناصب رفيعة جدا أقل ما يقال عن

مواقفها: إنهم يسوسون دولهم بسياسة لا تؤيد من قريب أول بعيد قيام الأخوة الإنسانية.

ثم إن اختلاط الدين بالسياسة -وأعني بالسياسة مفهومها السائد حاليا وهو السعي لامتلاك السلطة بأي طريقة كانت- قد جذب البعض إلى الخوض في أمور خوضا يعكر صفاء العلاقات الإنسانية، و إن حماسة بعض هؤلاء جعلتهم ينطقون بكلمات يأبى لسان المنصف نطقها ويشمئز القلم المحايد كتابتها؛ بل ينكرها دين ناطقها.

وبالإضافة إلى الأفكار التي ينبغي تصحيحها، هنالك على سبيل المثال لا الحصر- تصرفات يمارسها بعض أبناء هذا العصر لا تتماشى مع فكرة الأخوة الإنسانية؛ بالله عليكم، هل يعقل أن يباد محصول زراعي من أجل الحفاظ على سعره المرتفع طمعا في الربح المضاعف ؟؟ هل يتصور صنيع الإنسان في تبذيره لطعامه وشرابه ؟ هل تتخيلون كم من بقايا الطعام مرمية في صناديق القمامة بل الطرقات؟

منظمة الأغذية والزراعة التابعة للأمم المتجدة تقدر تلك البقايا المرمية في أوربا –وحدها- تكفي لإطعام 200 مليون نسمة وفي أمريكا اللاتنية تكفي لإطعام 300 مليون نسمة بل - حسب تقدير المنظمة - لو جمع ربع الأطعمة المرمية في العالم لكان الربع كافيا لإطعام 870 مليون نسمة، أين نحن بهذه التصرفات من الأخوة الإنسانية وملايين من إخواننا يعيشون جياعا في مناطق عديدة من العالم؟ علما بأن الفقر والجوع مع الشعور بالاضطهاد والظلم كان -ولا يزال- من الأسباب الرئيسية في نشوء العداوة والبغضاء بين الإخوة .

تلك بعض المشاكل والتحديات التي تواجه بروز الأخوة الإنسانية إلى النور وهي مشاكل لا تحلها الأيادي التي تجمعها الأخوة الدينية وحدها، ولكن تحلها فرق تجمعها الأخوة الإنسانية على ضوء القيم الدينية المشتركة بين الجميع.

أخيرا؛ هل هناك فرص؟ نعم هناك فرص! ونقولها صريحة، ليس فقط لأنه لا ينبغي للإنسان أن يفقد الأمل أو لاعتقادنا بأن بذور الخير كائنة في نفوس الإنسان وإن اختفت في أعماق شعوره؛ بل نقولها لأن معالم تلك الفرص بادية و متمثلة في عيوننا، منها العلاقات الطيبة

والزيارات المتبادلة مع الأبحاث الصريحة المخلصة بين القائمين بمختلف الأديان ثم الأفكار النيرة المتماشية مع ظروف العصر التي نسمعها بين الحين والحين من القائمين بأمور الدين والمجتمع الإنساني؛ فالأزهر الشريف ما فتئ يقدم أفكارا واقتراحات تنير السبيل إلى المقصود، وإن إمامه الأكبر فضيلة أ.د أحمد الطيب لَيُصَرِّحُ علنا بأن الشرق: (أديانا و حضارات) ليس له مشاكل مع الغرب سواء الغرب المتمثل في منظماته الدينية أو غرب الحضارة العلمية المادية، وعلى جانب آخر وفي نفس الوقت نجد أفكارا وأنشطة متمخضة من نتائج قرارات مجمع الفاتكان الثاني والتي - حسب علمي المحدود- تدل على الانفتاح من قِبَلِ الكنيسة وتقديم، تفاسير للدين المسيحي تتناسب وظروف العالم الراهنة الذي يحتم ضرورة فهم الإنسان المعاصر ومد الأيدي للتعاون مع معتنقي الأديان الأخرى كما أن تلك القرارات تسجل اعتراف الكنيسة بأن في الإسلام تعاليم تتماشى مع تعاليم المسيحية، وهو موقف يخالف المواقف السابقة للكنيسة، والتي كانت مجالا للصيد في الماء العكر. وبالإضافة إلى تلك الإيجابيات نجد تأكيدات من قبل دول وحكومات؛ وفي مقدمتها دولة الإمارات العربية المتحدة على ضرورة السعي الدؤوب لتأكيد التسامح والتعاون والعمل البناء من أجل أن ينعم الإنسان بأخوته الإنسانية، كل تلك العوامل – إذا أخلصنا النية وتكاثفت أيدينا - كلها - لفرص سانحة لإيجاد الأخوة الإنسانية في عالمنا.

وفقنا الله جميعا.

وأخيرا أشكركم على حسن استماعكم والسلام عليكم و رحمة الله و بركاته.